جامع مسائل الأحكام
وأهميته في الدراسات التاريخية

أ. مريم عطية
جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة

مثّل الفقيه البرزلي أحد تلامذة ابن عرفة الكبار، وكان أحد أعمدة المدرسة المالكية المغاربية مع مجموعة من تلامذة ابن عرفة الآخرين: كالأبي، والسّلاري، والسّماع الهنتاتي وابن ناجي، والرصّاع.

ففي هذه الفترة من القرن الثّامن الهجري/الرّابع عشر ميلادي عرفت إفريقية الحفصية أحداثا مختلفة من هجمات أعراب بني هلال وبني سليم، كما عرفت أحداث الطّاعون من قبل، وأحداث الغشّ في العملة وأحداث اجتماعية وسياسية دوّن البرزلي تفاصيلها في ديوانه على شكل مسائل استفتي فيها.

ولقد برز نجم البرزلي بعد وفاة شيخه ابن عرفة الذي لازمه ما يزيد عن أربعين عاما كما ذكر ذلك بنفسه في إجازته لابن مرزوق بعد أن اكتسب علمه وهديه خاصّة ما كان ينزع فيه إلى العقل والمنطق فقد عرف ابن عرفة بميولات عقلية وإدراجه العلوم المنطقية في التّدريس الدّيني.

تلاحمت كثير من الظّروف والأسباب في صقل شخصيّة الفقيه الحافظ البرزلي وجعلته يرتقي إلى أعلى المناصب الفقهية آنذاك حتى لُقّب بشيخ الإسلام، وحافظ

المغرب وفقيهها وإمامها واشتهر بمجموع فقهي كبير عُرِف "بجامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام .

هذا الجامع برزت أهميته عند الفقهاء فتلقّوه بالقبول وصار لهم مرجعا يرجعون إليه فيما تشابه لهم من النّوازل الواقعة، وقد كان له تأثير على المدرسة المالكية المغربية بالدّرجة الأولى.

كما برزت توجّهات مختلفة لكثير من الباحثين في التاريخ تدعو إلى العناية بكتاب البرزلي خصوصا، وكتب أخرى في النوازل لأنها تمثل لهم مادّة تاريخية واقعية بعيدة عن توجهات النصوص الإخبارية المبنية عادة على خلفيات إيديولوجية.

- سأحاول في هذا المقال تسليط الضّوء على مجموع البرزلي مبرزة أهميته في كتابات المؤرخين وتأثيره في فقه المدرسة المالكية المغربية

البرزلي: قيرواني نزيل تونس

لم تختلف المصادر كثيرا في تسمية البرزلي بل نكاد نلحظ إجماعا على تسميته بأبي القاسم بن أحمد بن محمّد بن إسماعيل البلوي القيرواني، الشّهير بالبرزلي [1]، أما نسبة البرزلي إلى قبيلة بُرزُلة فقد ضبطها السّخاوي بضمّ أوّله وثالثه دون أن يذكر هذه النّسبة هل هي مكانا أو قبيلة . والبرزلي أصيل مدينة القيروان تلقّى دروسه على شيخه الشّبيبي وأجازه سنة سبعين وسبعمائة، اشتهر بالفضل والعلم بالقيروان وتبوّأ له قاضي القيروان أبي عبد الله محمّد الفاسي بأنه سيكون مفتيا[2]، وبعدما ورد على تونس لازم

---

[1] ابن مريم التلمساني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الجزائر، المطبعة الثعالبية، 1326هـ/1908 ص 150 يمكن مراجعة ترجمة البرزلي في المصادر الآتية :

تآليف ابن ناجي الفقهية لأنه تلميذ البرزلي لا زمه بالقيروان وبتونس وكذا ذيل معالم الايمان ج 4، ابن أبي دينار المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية ج 1 ص 701، السخاوي الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ج11 ص 130، لمحمد الحبيب الهيلة دراسة عن البرزلي بالنشرة العلمية للكلية الزيتونية، 1 (1391 / 1971)

[2] ذكر ابن ناجي في معالم الإيمان ج4 ص 161 بأنه بعد أن دخل البرزلي والشيخ أبي يوسف الزغبي عليه وخرجا من عنده قال لمن حضره : الأول :(البرزلي) مفتي بلده، والثاني (الزغبي) قاضيها .

الشّيخ ابن عرفة الذي كانت رئاسة الفقه ترجع إليه وتولى خطبة جامع أريانة، كما تولى مشيخة المدرسة الشمّاعية بتونس إلى سنة 813هـ وعيّن بعدها في خطط الإمامة، والخطبة، والفتيا بجامع الزيتونة .

ورث البرزلي علما غزيرا على شيوخه بتونس والذي لقيهم في رحلته إلى المشرق، بل اشتهر بعدها بالفضل وسعة العلم حتى أجبر شيخه ابن عرفة أن يضلّ منكبّا على كراريسه مجتهدا [1]، وقد وصفه كثير من أصحاب كتب التراجم والطبقات بأوصاف تنمّ كلّها على بلوغه درجة عظيمة في العلم .أصيب البرزلي في نهاية عمره بفقدان بصره وهو ما دلّت عليه رواية الرصّاع عندما زاره سنة 834هـ ولكن كفاف بصره لم يمنعه من مواصلة القيام بوظائفه من خطابة وإمامة وإفتاء وتدريس وكذا علاقته مع السلاطين الحفصيين [2].

جامع مسائل الأحكام : مجموع في النوازل

لم تُنسَب كتُب المصادر للبرزلي غير كتابه الفتاوى وهو من أشهر وأكبر تآليفه ولقد سمّي بمسمّيات مختلفة أبرزها، الفتاوى، والنّوازل، أو ديوان البرزلي ولقد أشارت كتب المصادر لأهميته ووصفه ابن مريم بأنّه الدّيوان الكبير في الفقه والفتاوى وهو من كتب المذهب الأجلّة أجاد فيه ما شاء [3]وسمّاه السّخاوي بالفتاوى المتداولة [4] أما صاحب كفاية المحتاج فذكرها باسم النوازل المشهورة في الفقه بعد أن ذكر البرزلي بأنه حافظا للمذهب بحاثا نظّارا في الفقه [5].

---

[1] لام ابن عرفة عن كثرة اجتهاده في آخر حياته فقال : كيف أنام وأنا بين أسدين الأبي بفهمه وعقله، والبرزلي بحفظه ونقله

[2] الرصاع، الفهرست، ص 62

[3] ابن مريم، البستان ص 150

[4] السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ج11، ص 132.

[5] نقلا عن الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس، الدار التونسة للنشر، ج 1، ص 701

وقد وقع محمد مخلوف في خطأ إذ نسب للبرزلي مصنفين فقال : له ديوان كبير في الفقه جمع فأوعى، وله الحاوي في النوازل[1] والحقيقة أنهما اسمان لمصنف واحد. واشتهر الكتاب باسم جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام وقد استعرض البرزلي في مقدمة كتابه الدوافع التي جعلته يؤلّف هذا الديوان قائلا :"هذا كتاب قصدت فيه إلى جمع أسئلة اختصرتها من نوازل ابن رشد وابن الحاج والحاوي لابن عبد النور وأسئلة عزّ الدين وغيرهم من فتاوى المتأخرين من أيمة المالكيين من المغاربة والافريقيين ممّن أدركناه وأخذنا عنه أو غيرهم ممن نقلوا عنهم وغير ذلك مما اخترناه ووقعت به فتوانا أو اختاره بعض مشائخنا "[2].

فالبرزلي لم يخرج عن دائرة الفتوى المغربية لانها الأحوط في الإجابة عن النوازل الواقعة لتشابه البيئة بين المغرب والأندلس وإفريقية.

فابن رشد مثلا عاش فترة من الزمان في عهدي الطّوائف والمرابطين إلى حدود سنة 520هـ فنوازله تعطينا صورة عن الحياة السّياسية والاجتماعية والاقتصادية في الأندلس والمغرب ولا شكّ أنّ الفتاوى كانت تأتيه من حاضرة المغرب ومدنه، ولقد جرت عادة الشّيوخ تقديمه على غيره من الشّيوخ لرسوخه في العلم وتقديمه للقضاء والفتيا بإجماع من جلّ معاصريه[3]، وابن الحاج هو تلميذ ابن رشد علا باعه في مجال القضاء والفتيا وكانت قدراته عجيبة في استنباط العلل والتخريج ونوازله أيضا هي تصوير للمظاهر العامّة خلال عصر الطّوائف والمرابطين[4]

وعموما فالبرزلي كان قاصدا الاعتماد على العلماء الذين انتسبوا للحضرة المغربية والإفريقية وكذلك القضاة لأنّ ديوانه يضمّ المسائل التي وقعت للمفتين والحكّام

---

[1] محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 245

[2] البرزلي، جامع مسائل الأحكام، ج1، ص 18.

[3] فتاوى ابن رشد، تحقيق محمد المختار بن طاهر التليلي، بيروت، دار الغرب،1407هـ / 1987، ج 1، ص 70.

[4] أحمد اليوسفي شعيب، أهمية الفتاوى الفقهية في كشف وقائع التجربة الأندلسية: نوازل ابن الحاج التوطبي نموذجا، الرياض، مطبوعات الملك عبد العزيز، 1996 ص 388.

والقضاة، زيادة على اعتماده على أمّهات المذهب المالكي المعروفة والتي يعتمد عليها كلّ أصحاب النّوازل المتمثلة في المدونة، والعتبية، والموازية، والمنتخبة، ووثائق ابن العطار، ونوازل ابن سهل، ومؤلفات ابن الحاج، والنّوادر والزيادات وتهذيب البرادعي وغيرها.

أمّا ترتيب كتابه وتبويبه فقد اتبع فيه طريقة أغلب كتب النّوازل في ترتيب المسائل على أبواب الفقه ابتداء من باب العبادات فالمعاملات فالأحوال الشخصية. وألحق في آخر الكتاب مسائل تتعلق بالأدعية والرّقى والطب.

أمّا طريقته في عرض مسائله فهو يذكر السّؤال الموجّه إليه أو إلى أحد شيوخ المذهب ويورد الإجابة سواء كانت من عنده مباشرة أو من عند شيوخ المذهب، ثم يعقّب على هذه الأجوبة إمّا بالزيادة من عنده مباشرة أو من عند أحد شيوخ المذهب وكثيرا ما يدحض حجج من يخالفهم، وكان كثير الاعتماد على آراء شيخه ابن عرفة. إنّ كتاب الجامع كان صورة واضحة للمجتمع التونسي في العهد الحفصي أضف إلى واقعية النوازل النابعة من مميزات المذهب المالكي[1] والذي شكّل مصدرا مهمّا للباحثين في التاريخ وكذا من جاء بعده من علماء المالكية وسأبرز أهمية الكتاب عند كليهما.

برزت أهمية جامع مسائل الأحكام في المدرسة المالكية المغربية وحظي بعناية خاصة من جانب اختصاراته ومن جانب النقول التي اعتمدها أصحاب المذهب في مؤلفاتهم الفقهية وفي كتب النوازل، وهذه بعض مختصرات جامع مسائل الأحكام.

- المسائل المختصرة من كتاب البرزلي[2] لتلميذه أبي العباس أحمد بن

---

[1] لمزيد من الاطلاع ينظر عبد الرزاق الحمامي، جدلية النص والواقع البرزلي نموذجا، من كتاب، قضايا الفكر الديني بتونس، ص 59

[2] هذا الكتاب محقق من طرف احمد محمد الخليفي، طرابلس، منشورات كلية الدعوة، 1401هـ/1991م

عبد الرحمن اليزليطني المعروف بحلولو [1] من أعلام ليبيا كان على قيد الحياة سنة 895هـ .

- مختصر جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام : يسمّى الحاوي في النّوازل لمؤلفه أبي عبد الله البوسعيدي البجائي"
- مختصر البرزلي لأبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي.

هذه المختصرات المعروفة تناقلتها كتب المصادر ولقد حصلت على مختصر لنوازل البرزلي في مخطوطة بالمكتبة الوطنية بالجزائر[2] تحت عنوان : المسائل القواطع المنتخبة من الجامع أو المطالب العالية المنتخبة من الأسولة البرزلية لمؤلفه محمد بن عكريش[3] أما تاريخ نسخ المخطوطة فهو: 1149 هـ

يبدو أن هذه المخطوطة لم تعرف لحد الآن ولم يشر إليها أحد ضمن مختصرات البرزلي وأرجو أن تلقى العناية لاخراجها والتعريف بها وحقيقة كثرة هذه المختصرات على ديوان الجامع تدل على عناية العلماء به حتى يسهل تناوله وتقريبه والتعامل به لانه ديوان ضخم .

ولقد نال هذا الجامع شهرة عند علماء المالكية فتلقوه بالقبول واعتمدوه في نقولهم واستشهاداتهم ونمثل بما سيأتي على سبيل المثال لا الحصر :

كتاب الأجوبة :لأبي القاسم بن محمد بن مرزوق بن عظوم المرادي القيرواني كان حيا سنة 1009هـ ولقد تتلمذ جده الأعلى على الإمام البرزلي وله مؤلفات كثيرة في المذهب المالكي، أما أبو القاسم صاحب الأجوبة فكان اعتماده كبيرا على فتاوى البرزلي خاصة أنّ البرزلي يمثل مرحلة شباب العهد الحفصي وابن عظوم يمثل مرحلة شيخوختها واشتداد قوة الأسبان والدولة العثمانية على تونس .

---

[1] هو فقيه أصولي أحد الأعلام الحافظين لفروع المذهب تولى قضاء طرابلس ثم صرف عنها له مؤلفات عديدة في الفقه المالكي كان حيا سنة 875هـ .

[2] *Catalogue général des manuscrits de la bibliothèque nationale d'Alger* par E. Fagnan

[3] لم اعثر له على ترجمته.

استعمال جامع مسائل الأحكام في الدراسات التاريخية

إن ظهور الاتجاهات الجديدة في كتابة التاريخ، والتي تعنى بدراسة النّواحي الاقتصاديّة والاجتماعية من حياة المجتمعات، دفعت الدّارسون بشكل عام من مستشرقين ومغاربة إلى البحث عن مصادر ثرية تعوّضهم ذلك النّقص الظّاهر في مصادر الأرشيفات والحوليات. ومن هذا المنطلق بدأ اهتمام بعض الباحثين بالفتاوى والنّوازل الفقهية بوصفها مصادر غنية بمعطيات الزّمان والمكان .

ولئن ظلّت الفتاوى حتى نهاية السّبعينات مستبعدة من قبل المؤرّخين المغاربة فإن تيّار محمد حجّي ومحمّد المنوني لم يتجاوز طور إثارة الانتباه إلى كتب الفتاوى والنوازل إلى أن طرح عبد الله العروي بطريقة أكثر جلاء ضرورة توظيف كتب الفتاوى والنّوازل في كتابة التاريخ المغربي قائلا : "إنّ فقه النّوازل هو الكفيل بأن يقرّبنا أكثر من واقع الأوضاع السّياسية والاجتماعية، لكن هذا النّوع من الكتابات ما زال لم يدرس دراسة شاملة "[1]

ولعلّ الفضل في استثمار هذه المصادر يعود إلى مجموعة من علماء الإسلاميات الغربيين المهتمين بتراث المنطقة الثقافي والمشتغلين بتاريخها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والفكري .

لقد حاولت في هذا البحث أن أعرض إلى كتب النّوازل، وكيف استغلّها المستشرقون والمغاربة مركّزة على قيمة جامع مسائل الأحكام للبرزلي، وحضوره المهم في دراساتهم مشيرة أيضا إلى ذلك التيار الذي يقوده عدد من الباحثين منهم محمد حسن، في الاهتمام بنوازل البرزلي بالدراسة وبتوجيه الكثير من الطلبة التونسيين إلى تحقيق ودراسة أبواب من نوازل البرزلي.

---

[1] *Histoire du Maghreb, essai du synthèse*, Paris, Maspero, 1970, p. 112.

أهمية كتب النوازل في الكتابات التاريخية

أودّ الإشارة إلى موضوع هامّ أخذ حظّه عند المؤرّخين المستشرقين والمغاربة والذي يتمثّل في المدد الواقعي والثريّ الذي لم يتعوّد المؤرّخون إلى الرّجوع إليه من قبل في استقاء المعلومات الاقتصادية وتتبّع الواقع الثّقافي والاجتماعي من كتب الفقه والنّوازل وسأعرض في هذا المبحث إلى دراسات المستشرقين والمغاربة لكتب النّوازل عموما ولكتاب البرزلي خصوصا .

المستشرقون وكتب النوازل

أشار روبير برانشفيك (Robert Brunschvig) في كتابه[1] إلى أهمية كتب النّوازل قائلا: "فما أكثر الحالات الملموسة المثارة في تلك الكتب الفقهية بمناسبة بعض المجادلات الدينية أو القانونية وفي مقدّمة ذلك النّوع من المصادر تجدر الإشارة إلى مجموعة الفتاوى التي لم تنشر[2] بعد والمعروفة باسم نوازل البرزلي التابعة للنصف الأول من القرن الخامس عشر "[3]. كما حاول برانشفيك تتبع الواقع الاجتماعي الذي يكون وراء الاختلافات الفقهية وخاصة بين المذهب المالكي الحجازي، والمذهب الحنفي العراقي المتعلق خاصّة ببعض المسائل مثل سنّ البلوغ، والحضانة، وتحديد مقدار الصّداق، ومنزلة المرأة، والقسامة، والشّفعة، وشرط الكفاءة أو التكافؤ بين الزّوجين [4]

---

[1] برانشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15، بيروت، دار الغرب، 1988، ص14.

[2] يقصد فتاوى البرزلي ففي أثناء دراسته كانت فعلا غير محققة ولا منشورة بل كانت مجموعة من المخطوطات منتشرة بين تونس والمغرب والسعودية وإسبانيا وغيرها من المكتبات أما الآن فقد حققت نوازل البرزلي من طرف محمد الهيلة ونشرتها دار الغرب سنة 2002.

[3] R. Brunschvig, « L''intérêt historique des ahkams et des nawazils », *Annales de l'Institut d'études orientales*, 1934.

[4] « Considérations sociologiques sur le droit musulman ancien », *Studia Islamica*, 3 (1955), p. 61-73.

كما حلّل المستشرق هادي روجي إدريس بعض فتاوى البرزلي المتعلقة بالتجارة البحرية والقراض في إفريقية [1] ونجح في كشف الواقع الاجتماعي في إفريقية الزيرية من نوازل البرزلي في الغرب الإسلامي واضطلع بدراسة مائتين وخمس وأربعين فتوى متعلّقة بالنكاح من الجزء الثالث والجزء الرابع من المعيار للونشريسي [2] والتي تغطي الفترة ما بين القرنين التاسع والخامس عشر.

وقد كان تلميذه أيضا عبد العزيز خلوق التمسماني أيضا دقيقا في عدم استهانته بالقراءة الصحيحة لفقه النوازل مشيرا إلى ذلك في مقالاته عن قيمة فقه النوازل التاريخية قائلا: "إن قراءة فقه النّوازل ليست بالأمر الهيّن فمسائله لا تكشف عن قيمتها بمجرد النّظرة السّريعة والتّعامل معها يتطلّب تحصيلا جدّيا لفكّ معضلاتها وإزاحة الغموض الذي يحيط بها في كثير من المواضع" [3] ولقد كانت لعبد العزيز خلوف اهتمامات خاصة بنوازل البرزلي فقد كانت رسالته لنيل درجة الدّكتوراه السّلك الثّالث بجامعة بوردو بفرنسا تحت إشراف الهادي روجي إدريس بعنوان: جامع مسائل الأحكام لأبي القاسم البرزلي (ت 841)[4] . وعني في الفصل الثاني من رسالته بتحليل فصول خاصة بالمعاملات المالية كالعارية، والمرابحة، والصرف، والاستثمارات الزراعية، والمغارسة، والمساقاة، والرسالة مازالت بالفرنسية لم تترجم بعد، كما له مقال حاول فيه التعرض إلى معاملات التجارة البحرية التي كانت سائدة في البحر الأبيض المتوسط من خلال نوازل البرزلي ومن هنا تتكشف لنا فعلا أهمية هذا الجامع في كشف كثير من الوقائع الاقتصادية والمعاملات التجارية السائدة في المغرب إلى

---

[1] « Commerce maritime et kirād en Berbérie orientale d'après un recueil inédit de *fatwās* médiévales ». *JESHO*, (1961), p. 225-239.

كما ينظر : الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م تعريب حمادي الساحلي،بيروت،دار الغرب،ج2 ص 276،295.

[2] « Le mariage en Occident musulman – analyse de *fatwās* médiévales extraites du *Miʿyār* d'al-Wansarīsī ». *Studia Islamica*, XXXII (1970), p. 157-167.

[3] عبد العزيز خلوف، "قيمة فقه النوازل التاريخية"، مجلة البحث العلمي، (29-30) 1979، ص 7،3

[4] هذه الرسالة موجودة في جامعة بوردو تحت التفاصيل الآتية :2- R7134-B 1978 B X 36

غاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر ميلادي[1]. وخلُص في نهاية تحليله لفتاوى الأنكحة هذه من زواج وطلاق وما يتصل بهما من ممارسات إلى أنّ إجراءات الزواج خلال ستة قرون من الزّمن قد تطوّرت هنا وهناك بل في عموم الغرب الإسلامي وأنّ المجتمع المغاربي كان أقلّ جمودا وتجانسا مما يوصف به عادة كما وظّف مجموعة من فتاوى المعيار للكشف عن الواقع الاقتصادي بالمغرب الاسلامي [2]

واعتبر المستشرق الفرنسي كلود كاهان (Claude Cahen) من أبرز المتخصصين الفرنسيين المعاصرين في التاريخ الإسلامي والذين نادوا بضرورة إعطاء أهمية خاصة للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي واعتبر أنّ كتب النوازل من المصادر التّشريعية المهمة والتي يجب أن تحظى بعناية خاصّة، خاصّة أنّ هذه الفتاوى تتعلّق عادة بمجالات واقعية يمكن تقريبا تأريخها وتحديد مكانها. لقد كرّس جهده في دراسة النّوازل المتعلّقة بالحسبة وبأحكام السّوق وأشرف على أطروحة الزموري للسلك الثالث المكرسة لتحقيق ودراسة القسم الخاص بالحسبة من نوازل ابن سهل.

أما جاك بيرك (Jacques Berque) فقد وظّف النّوازل وخاصّة نوازل مازونة واستنتج منها بعض الفوائد المتعلقة بعلم اجتماع المغرب[3] في مقال كتبه بعنوان "إعادة قراءة نوازل مازونة"، حيث أشار إلى أهمية البرزلي والمازوني في تشكيل المدرسة المالكية المغربية. كما حلّل المستشرق إيميل آمار فتاوى الونشريسي في نشرية الأرشيف المغربي[4].

---

[1] هذا المقال موجود بمركز الملك فيصل بالرياض تحت عنوان :التجارة البحرية في حوض البحر البيض المتوسط من خلال نوازل أبي القاسم البرزلي رقم الوثيقة 180380

[2] محمد المختار ولد السعد، "الفتاوى الفقهية والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي الموريتاني" الكراسات التونسية، 175 (1996).

[3] سعد غراب، "كتب الفتاوى وقيمتها الاجتماعية - مثال نوازل البرزلي"، حوليات الجامعة التونسية، 16 (1978)، ص 75.

[4] *Archives marocaines*, 12-13 (1908-1909)

ولئن كان هذا حال الكثير من المستشرقين فإنّ منهم من كان على خلاف هذا التوجه فهذا سوفاجي (Sauvaget) يحذر من استعمال المصادر الفقهية من قبل المؤرخ في دراسته للحياة الاجتماعية، وإن اعترف ببعض الفائدة لكتب الاختلاف وكتب الفتوى والبدع [1].

و يصرّح ولد السعد أنّ أهمية هذه الأعمال لا تكمن في مضمونها وإنما فيما ستّته من تقليد في مجال استغلال الفتاوى كمصادر تاريخية ولو كان ذلك الاستغلال قد ضلّ أحيانا استغلالا إخباريّا محضا [2].

المغاربة وكتب النوازل

يعدّ المؤرخ التونسي محمّد الطالبي من أكثر المؤرخين اهتماما وتنويها بأهمية كتب النوازل فقد صرّح بأنّ فائدة هذه الكتب لم تعد بحاجة إلى تبيان سواء من حيث أصالة المعلومات أو من حيث ثراء المادة الإخبارية التي تحتويها.

فقد اهتمّ محمد الطّالبي بدراسة الحياة العسكرية من قرصنة بحرية ورباط وطرق قتال من خلال فصل الجهاد من كتاب النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني كما ألقى نظرة فاحصة على جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إفريقية بدراسة سبع وثلاثين فتوى من كتاب مسائل الشماسرة للإبياني وبخصوص ما يمكن لهذه النصوص أن تسديه من خدمات لدارس المجال الاقتصادي والاجتماعي يقول الطّالبي : "إنّ هذا النص فضلا عن أهميته الواقعية في حدّ ذاته، يظهر لنا مدى الخدمات التي يمكن لكتب الفقه أن تقدّمها للمؤرّخ،إذا ما استنطقت بشكل صحيح ..."[3]

أمّا سعد غراب فقد اضطلع بدور هامّ في دراساته التي كانت مصدرها كتب الفتاوى خاصّة أبحاثه حول ابن عرفة والبرزلي، وقد استعرض في بحثه كتب الفتوى وقيمتها الاجتماعية من نوازل البرزلي تضارب الآراء حول أهمية الكتب الدينية في

---

[1] سعد غراب : كتب الفتاوى وقيمتها الاجتماعية، ص 67

[2] محمد المختار ولد السعد، المرجع السابق.

[3] المرجع نفسه .

دراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية كما تناول فيها واقعية المذهب المالكي وكثرة التأليف في الفتاوى وزهد علماء المالكية في التّأليف في الحيل واستعرض أهمّ المستشرقين الذين اعتنوا بنوازل البرزلي والمازوني والونشريسي .

أمّا عن القيمة الاجتماعية لنوازل البرزلي فقد نوه في دراسته هذه لصلات المسلمين بأهل الذمة ونظرة بعض الشعوب والمجموعات لبعضها البعض كما تعرّض لموقف الفقهاء من الأعراب وأهل البوادي وغيرها من المسائل [1] .

لقد كانت نوازل البرزلي حاضرة في دراسة محمد حسن المعنونة : المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي فهو يشير قائلا : " لقد مثّلت هذه المجلدات الفقهية المصدر الأساسي في عملنا هذا وخاصّة في دراسة البابين الاقتصادي والاجتماعي وكان اعتمادنا على هذا الصّنف من الكتب كبيرا ونخصّ بالذّكر جامع مسائل الأحكام لأبي القاسم البرزلي ألّفه نحو سنة 810هـ والدرر المكنونة في نوازل مازونة ليحيى المغيلي ت 883هـ والمعيار المعرب للونشريسي ت 914هـ يقول : "وعموما فقد قضينا الوقت الطويل في قراءتها واستخراج المادة التاريخية منها، وتبين لنا رغم بعض التّكرار للنّوازل بين البرزلي والونشريسي أنّها شديدة الارتباط بموضوعنا" [2]

ويؤكّد محمد حسن على أهمية كتب النّوازل بصفة خاصّة والفقه بصفة عامّة على القراءة الجديدة للتّاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الوسيط كما استطاع باستثمار هذه القراءة وصف حالة الريف وأسس الإنتاج الفلاحي وأنواع الملكية المعروفة آنذاك،كما استطاع نقل تلك الصّعوبات التي لحقت بالفلاحة واغتصاب الأراضي من فتاوى البرزلي والونشريسي [3]

---

[1] سعد غراب، كتب الفتاوى وقيمتها الاجتماعية، مثال نوازل البرزلي، ص71

[2] محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، تونس، جامعة تونس الأولى، 1999 م ج1، ص 22

[3] محمد حسن، "الريف المغربي في كتب النوازل"، الكراسات التونسية، 131-132 (1985).

ولئن اعتبر بعض الباحثين أن السّمة الغالبة نسبيا هي محدودية استغلال الفتاوى في الكتابات التاريخية على العكس في المغرب فإن اتجاه محمد حسن يبدو واضحا في ذلك الدفع المتمثل في إشرافه على عديد الرسائل التي اهتمت بتحقيق ودراسة أبواب من نوازل البرزلي [1] ولقد حصلت على جميع هذه الرسائل من جامعة التاسع من أبريل بمدينة تونس.

أما نجم الدين الهنتاتي فقد ركز عنايته في هذا المضمار على بعض أمهات الكتب المالكية مثل المدونة للإمام سحنون، والنوادر والزيادات لابن أبي زيد والبيان والتحصيل لابن رشد وقد أشرف على مجموعة من الرسائل ركز فيها على كتب النوازل وخاصة نوازل البرزلي[2].

وتظلّ توجّهات الباحثين سواء مستشرقين ومغاربة مختلفة في كشف خبايا كتب النوازل وما تكشفه لنا من وقائع في الحياة الاقتصادية والاجتماعية باعتبار أنّ الفتاوى لا تنفصل عن الممارسات الاجتماعية لحياة الناس .

الخاتمة

إنّ دعوى استكشاف كتب النوازل من طرف المؤرخين هي دعوى صائبة في كثير من جوانبها خاصة أن فقه النوازل المالكية يتميز بالواقعية بمعنى أنّ هذه المسائل هي واقعة لا مفترضة الوجود وعنصر الواقعية هو موروث توارثه تلامذة الإمام مالك عن شيخهم الذي عرف عنه أنه لا يفتي إلا بما وقع من المسائل وأنا من جهتي أود أن

---

[1] أشرف على الطالب توفيق سعود الذي درس وحقق باب الغصب والاستحقاق من جامع مسائل الأحكام سنة 1999، والطالب خالد الجويني الذي حقق ودرس جزء من كتاب البيوع من خلال جامع مسائل الحكام سنة 1998. وأشرف على الطالب بلقاسم طبابي الذي حقق ودرس جزء من باب الحبس سنة 1986م وكان من قبله سعد غراب الذي أشرف على رسالة عبد الرحمن بلحاج علي الذي درس وحقق مبحث الدماء والحدود والجنايات والعقوبات ومبحث السرقة سنة 1977.

[2] أشرف على الطالب محمد جالو الذي درس وضعية المطلقة في الغرب الإسلامي من خلال نوازل البرزلي لنيل شهادة الماجستير سنة 2004.

ألفت نظر الفقهاء إلى الاهتمام بجانب تاريخ الفتوى فحقيقة إن فهم فتوى الفقهاء لا يمكن إدراك حقائقها إذا أخرجناها من إطارها الزماني والمكاني وظروف بيئة الفقيه وهنا تكمن المشكلة عند دارسي الفقه فهم لا يعنون بإطار الفقهاء التاريخي وعصورهم وبيئاتهم ويحملوا فتاويهم كأنها اجتهاد عام ومطلق .

فإذا كان المؤرخ بحاجة إلى فقه النوازل لاستكشاف الحياة الاجتماعية فإن الفتوى هي ممارسة لهذه الحياة الاجتماعية والتي يجدر بالفقيه أن يعرفها.